تَوْظِيفُ العَلاّمَةِ البَلاغِيِّ للأُسسِ القُرْآنيَّةِ في الأُسلوبِ الحِوارِيِّ

أ.د. الشيخ صاحب محمد حسين نصّار
كليّة الفقه - جامعة الكوفة

الحمدُ للهِ ربِ العالمين والصلاةُ والسلامُ على محمدٍ وآلهِ الطيبين الطاهرين وبعد:

يهدف البحث إلى بيان الأسس القرآنية التي إرتكزت عليها أساليب الخطاب الإسلامي، وبروزها معلماً واضحاً في الحضارةِ الإسلامية والعربية ومن ثم بيان الإسلوب الحواري للعلامة البلاغي المرتكز عليها.

لقد دعت الآيات الكريمة الإنسان إلى سلوك المنحى والطريق والإسلوب العقلي بغية إكتساب المعرفة الصحيحة وترصينها وكذلك تهذيب النفس والذات الإنسانية والإرتقاء والسمو بها بتعقل وتفهم المسائل والتوجهات بفكر واعٍ ونظرٍ ثاقب ولا يترك الحبل على الغارب تتقلب بها الأهواء والعواطف.

كما بلورت النصوص القرآنية الكريمة مبدأ الحوار وهيأّت منه سبلاً للوصول إلى الحق واليقين ولم يك هناك طريق أسلم وأوضح تتبلور به الحقائق وتنتظم بها خفيات الأمور وبواطنها من الحوار، ويكفي الحوار فخراً وعزاً وشموخاً بأن رسالات السماء جعلت من الحوار وسيلة وطريقاً للأنبياء

والرسل في إبلاغ وتبليغ رسالات السماء، وهذان الأساسان هما منطلق الإنسانية الحقة في فكرها وسلوكها المتمثلة في الإنسان الواعي المدرك.

في البدء أود أن أورد ما ذكره المفكر روجيه غارودي من أن (الغرب حادث عارض، ثقافته مسخ، لقد بترت من أبعاد جوهرية)[1].

ومن الجدير بالبيان إن ما طُرح هو لمفكر غربي تمرس بثقافة الغرب وفلسفته وأدرك من خصائص هذهِ الثقافة نفي الآخر بل وتغييبه، فلقد أرادت هذهِ الثقافة أن تبدو منقطعة الجذور، فقالت إن الفلسفة اليونانية معجزة العقل البشري، وأغفلت بل وهمشت ما سبق هذهِ الفلسفة من حضارات العراق القديم، ومصر القديمة، والهند والصين، بينما أثبتت الدراسات والبحوث في مجال تاريخ الفكر إن الفلسفة اليونانية مدينة للفكر الشرقي القديم بأشياء كثيرة[2] وأورد الدكتور (الشكعة) بشأن أسلوب ومنهج المسلمين بالحوار والمناقشة ما نصه (هم إذا ناقشوا ففي الجوهر دون العرض والقشور، وإذا جادلوا فبالتي هي أحسن إنها التعاليم التي درجوا على اتباعها من منطلق عقيدتهم والآداب العقلية التي إتبعوها من روح كتابهم)[3].

إن من الخصائص التي عُرفت بها الثقافة الغربية هي (نفي الآخر) حتى وقتنا المعاصر ولكن الآن تبدو بصورة واضحة وصريحة، وأظهرت نفسها إنها المركز والأساس وما عداها أطراف وهوامش، وجعلت من نفسها الوصّية وإدارة شؤون الآخرين، وسوغت من خلالها حركة الإستعمار في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر والقرن العشرين ومطالع القرن الحادي والعشرين، وليست فكرة العولمة إلا وجهاً من وجوه الفكرة القديمة وتبدو إنها الصورة الحالية الجديدة لنفي الآخر بِحُلّةٍ جديدة من أجل سيادة المركز الغربي والذي بدا واضحاً لكل إنسان.

(١) روجيه غارودي: وعود الإسلام ص١٥.
(٢) د. حسام الآلوسي: من المثيولوجيا إلى الفلسفة ص٦٣.
(٣) د. مصطفى الشكعة: معالم الحضارة الإسلامية ص١٠٩.

لذا برزت المعالم متطورة للفكر الإسلامي المناقض والمناهض للثقافة الغربية، بل ترى الثقافة الإسلامية تتوضح معالمها من أجل الإرتقاء بالإنسان فكراً وسلوكاً فقد إضطلع مفكرو الأمة الإسلامية والعربية بالدور الريادي فكانت جهودهم متميزة لما وعوه وفهموه من الشريعة الإسلامية بكل محاورها بما تهدف إليه بكافة وسائلها وسبلها إلى أن يكون الحوار مع الآخر بديلاً من نفيه، فقد إلتزم روجيه غارودي على سبيل المثال مشروع حوار الحضارات وألف فيه عدة كتب، وكذلك دعا الرئيس الإيراني الأسبق محمد خاتمي إلى إعلان (عام حوار الحضارات) في الأمم المتحدة.

وكان العلامة البلاغي، موضوع البحث، له إسلوبه الخاص في الحوار مع الآخر معتمداً الكتاب العزيز أساساً له في ذلك.

ولغرض الإطلاع التام تنتظم الدراسة على مبحثين وكما يأتي:

المبحث الأول: الأسس القرآنية في الخطاب والحوار.

إن مما يفيد الثقافة العالمية على وجه العموم والغربية على وجه الخصوص هو دراسة وقراءة النصوص الجليلة للقرآن العظيم قراءة معمقة وواعية بعيداً عن التعصب بل بإنفتاح وتعقل فلقد جاء الكتاب العزيز ليخرج الناس من الظلمات إلى النور وليبني أمة تحمل رسالة سماوية خاتمة شاملة عامة، وقد تحقق ذلك فعلاً من خلال الخطاب القرآني الذي أمتلك جملة خصائص جعلت منه بالغ الأثر في النفوس على مدى الدهور.

وأحاول الآن دراسة الأساسين منفصلين، على الرغم من إنهما ملتحمان في السياق القرآني لإتحادهما شأنهما في ذلك شأن خصائص هذا الخطاب العظيم في الهدف والغاية وكذلك في الأساليب والطرق وكما يأتي:

الأساس الأول: المنحى العقلي (الرؤية العقلية):

لم يَبلغ العقل مبلغاً ومكانة متميزة، كما بَلَغَ العقل في الإسلام ومن أهم المسائل التي لها أثر في ذلك هو رسالته السماوية مرتكزةً على العقل والتفكر وإعمال النظر من خلال الكتاب العزيز والسنة الشريفة (لقد أكبر القرآن العقل وأجله أي إجلال

وأعتبره أساساً للتفكير بخلق الإنسان والسموات والأرض ودليلاً للإيمان بالله وكتبهِ ورسلهِ)[٤].

والعقل فيما يرتبط به ويُداخله وما يفرزه من معانٍ ونتائج لا يكاد يخرج من حسن التدبر والتفكر وإعمال النظر في معالجة الوقائع والأحداث والمسائل، وسلامة الربط بين الأسباب والنتائج وكذلك أثره الفاعل في حُسن ملك زمام النفس والمضي بها في طريق الرشاد والصلاح والخير دنيا وآخرة وتشترك جميع المعاني التي أوردناها وغيرها على معنيين كبيرين هما:

١. **المعنى العلمي**: والذي يختص بطريق وسبيل تحصيل المعرفة وتوسيع آفاق الذهن والفكر والرؤى.

٢. **المعنى الأخلاقي**: يختص برعاية النفس وتقويمها ومحاسبتها وجهادها بغية وضعها على طريق الحق والصراط المستقيم.

وكلا المعنيين مما أشاعه القرآن الكريم ودعا إليه بل حبب العمل وفقهما لفوز ونجاة الإنسان في الدنيا والآخرة، وهو من خصائص ومميزات شريعتنا الغراء وهو الجزاء الثنائي.

لقد تجلى هذا الأثر العقلي والرؤية العقلية في الحضارة العربية الإسلامية وصار طابعاً غالباً عليها بفضل القرآن العظيم، فكل مسارب الحضارة والمدنية الحقة إنما يتغلغل في أسِّسها الطابع العقلي هذا، ويبدو ذلك واضحاً وجلياً من تشريعها إلى لغتها إلى أدائِها البياني الثري وهو ما يسمى بالنسق القرآني وهو (نسيج وحَدهِ).

والعقل حَكَمْ تحتكم إليه الكثير من الآيات القرآنية وهي في سياق المحاجَّة والمجادلة لأنه نور الله في داخل الإنسان.

ولبيان وتوضيح التحصيل المعرفي وتقويم النفس وتهذيبها من خلال العقل بصورة أوسع وأشمل تنتظم الدراسة على محورين مهمين وهما:

(٤) محمد رضا الحكيمي: القرآن والعلوم الكونية/ مطبعة دار القبس الكويت ص٧.

المحور الأول: العقل والتحصيل المعرفي:

العقل هو الأساس في إكتساب العلم والمعرفة وتحصيلها، والأداة المهمة في تهيئة سبل النجاة، وكان أول ما تلقى الرسول الأكرمﷺ من الله العلي القدير (إقرأ) لقوله عزمن قائل ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾[سورة العلق: ١ –٥].

والقراءة هي مفتاح العلم ونافذة من نوافذ العقل، ومن خلالها –القراءة –تتفتح أبواب المعارف له –للعقل –فيقوم ببلورتها وتنظيمها، وتحديد الصالح منها للإنسان والمجتمع.

من الواضح إن الدين السماوي الذي أول ما يبدأ بالقراءة لهو دين يمنح العقل البُعد والمكانة العليا المتميزة، وترتبط معاني القراءة بمعاني الإبداع والفكر والإستنتاج كما ترتبط إرتباطاً مهماً بمعاني العلم، فكأن العلم خلق آخر، والعلم لا يكون من دون عقلٍ مُدرك متفتح يَعي ويُحسن تَلقي المعارف، وترتيبها في إسلوب وطريق صحيح واضح يؤدي إلى الهداية والنجاة، فالمعرفة التي تستحق إسمها لابد أن تؤدي بالإنسان الواعي سبل الرشاد والقراءة الى إعادة نظر، وجدة في التأمل، وإستئناف رؤى، وكأن الكتاب العظيم بدعوته للقراءة الدعوة إلى هذهِ المعاني كلها إذ لابد منها من أجل عدم الإنصياع لسلطة التقليد وأن لا يكون أسيراً للعادة بل إستشراف المستقبل. وبهذهِ الصيغ والأساليب تأتي دعوة واضحة وصريحة على إعمال الفكر وتعميق النظر وبهذا يجعل الفكر متجدداً مرتبطاً بواقع الحياة برؤية وموضوعية علمية معرفية من خلال القراءة.

وبذلك تتوسع مفاهيم القراءة لتحوي وقائع الحياة ومستجداتها فضلاً عن قراءة حروف اللغة، لفهم ومراجعة ما كان واضحاً ومهماً آنذاك وبقيت آثاره وملامحه شاهداً ودالاً عليه، وفي ذلك عبرة وعظة حسنة وفهم ومعرفة الغرض منها صقل النفس الإنسانية ووضعها في مسارها الصحيح لتؤدي بها إلى الهداية والصلاح. لقوله تعالى:

أ. ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة النمل: ٦٩].

ب. ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾[سورة العنكبوت: ٢٠].

ج. ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[سورة الأنعام: ١١].

د. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾[سورة الحج: ٤٦].

وغيرها من الآيات الكثيرة التي تدعو إلى التفكر وإعمال النظر والعمق في الرؤية والنتائج، وذِكر القرآن لها ليس على سبيل القصص المجردة فقط وإنما هي دروس وموعظة لقوله تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ﴾[سورة آل عمران: ٦٢]. فعلى الإنسان الواعي أن ينظر ويدقق في الوقائع ليكون على معرفة وإحاطة تامة وصحيحة بأسباب التطور والإنهيار والسقوط ومن الواضح أن إستقراء وقائع التاريخ الإنساني إنما هو أسلوب عقلي متحضر ومتطور يربط بين أجزاء ما حصل للإنسانية على مر التاريخ والزمان من تجارب ولا يبقى الإنسان في نظر ضيق آني فيكون رهين زمنه المعاش.

إن هذا الإسلوب العقلي في قراءة التاريخ قراءة معمقة واعية يهدف إلى مسألتين مهمتين:

المسألة الأولى: توثيق وتركيز الجانب الإيماني في قلب المسلم بل المؤمن لأنه من خلال ذلك يرى ما آل إليه الكافر والظالم والمغتر ويحسب أن ما عاشه قد ينخدع ويبهر به فيؤدي به إلى الغرور والشموخ والكبرياء، ويصل به الأمر إلى الإلوهية، فيكون هذا وغيره عظة يُتعظُ بها، ويرى بعقله الواعي المدرك أن كل ذلك سراب زائل وإن العلو الحقيقي هو العلو الإيماني الذي يفلح في نهاية الأمر في الجزاء الثنائي، لذا نرى المؤمن قوي العقيدة واثقاً بخطاه، ثابتاً بفؤادِه، قوياً بشكيمته وعزيمته، لما وعاه.

المسألة الثانية: الإطلاع التام والتعرف الأوسع على ما حصل للإنسانية بتاريخها العريق من صور ووقائع ودروس تجعل من الإنسان المؤمن واعياً مدركاً متفهماً متيقناً لما مرت به البشرية لتكوِّن له زاداً معرفياً.

مما تقدم وغيره على الإنسان العاقل المستقرئ لوقائع الحياة الإنسانية من خلال آيات

الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأن الإيمان بما ورد فيه هو جزء من الإيمان بالمرسل والرسول والرسالة وما تحمل بين طياتها من معرفةٍ مركّزة وعقلية متفهمة عليه السير والعمل بسلوك وتصرف مقرون بالتعقل وحُسن التدبير لاطلاعه وقراءته ومعرفته الأسباب والنتائج وأن يكون نموذجاً يحتذى به لسلوكه وتصرفه الذي يعطي الصورة الواضحة لإيمانه وأن يكون صورة حية ناطقة مترجماً لما وعاه وأدركه عقلاً وفكراً فلا تناقض بين فكره وسلوكه حتى يكون مؤثراً ومثالاً يُقتدى بهِ لقوله تعالى ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٤٤].

وليس من المعقول مطلقاً أن يأمر الناس بفعل الخير والحُسنى والعمل الصالح ولا يلتزم بذلك ويكون بذلك مصداقاً لـ (وعاظ السلاطين) لأن المنهج والمنحى العقلي في القرآن يلزمه أن ينتظم ويرتب ويهذب ذاته ونفسه قبل أن يوجه الآخرين ويأمرهم بالعمل الصالح لأن الخطاب القرآني عام للفرد والجماعة من دون إستثناء أو تجزئة فالأمة التي تمتلك حق أن تأمر غيرها بالبر عليها أن تنظم نفسها قبل أن تأمر الآخرين لذا كان الإيمان الحقيقي مقروناً بالعمل الصالح لقوله تعالى:

أ. ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ .. ﴾ [سورة الكهف: ٨٨].

ب. ﴿ ... إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا .. ﴾ [سورة سبأ: ٣٧].

ج. ﴿ ... وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ ... ﴾ [سورة الطلاق: ١١].

د. ﴿ ... وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ .. ﴾ [سورة التغابن: ٩].

فإيمان بلا عمل يكون بلا روح وفاعلية وحياة، من هذا وغيره يمكن الإستفادة من الآيات الكريمات بحُسن التدبر والتفكر والتعقل والتأمل والقراءة الواعية ففي الكتاب العظيم أكثر من ثلاثمائة آية تدعو إلى التفكر.

ومن هنا نعلم بأن القرآن جعل للحقائق وجوداً موضوعياً وفكرياً مستقلاً عن وعي الإنسان، وأن تكون هذهِ الحقائق قابلة للإدراك والفهم فذلك هو أساس العلم ومنطلق

المنهج العلمي في التفكير.

المحور الثاني: (العقل وتقويم النفس وتهذيب الذات)

بالتحصيل المعرفي من خلال العقل، مؤصّلاً ومركّزاً بطرق حصولها وتنميتها وخزن نتائجها وما يستفاد منها ببلورتها، فبذلك يكون حينئذ إستثمارها وتفعيلها من خلال سياسة النفس وتقويمها فكلما كانت عقلية الإنسان واعية ومدركة أدت إلى الفهم والإستيعاب والسمو بالنفس والذات الإنسانية عن الجهل والغواية وتتوضح الحقيقة والمعرفة وبان طريق الصلاح والحق، وبذلك يتم تحصيل المعرفة ونقَوّم النفس في آن واحد، وعليه فإن العقل هو الذي يعول عليه ويقود النفس ويضعها في الطريق الصحيح والمنهج السليم وهو الذي يحدّها ويأخذ بها لما يُرضي الله جلت قدرته فقد أورد إمام المتقين وسيد البلغاء بهذا الخصوص ما نصه في دعاء الصباح:

{... إلهي هذهِ أزمَّةُ نفسي قَد عَقلتُها بعقال مشيئتك، فأجعل اللهم صباحي هذا نازلاً عليَّ بضياء الهدى بالسلامة في الدين والدنيا}(٥).

ويقول الجاحظ في سياق الثناء على من ألقى بأزمّة نفسه إلى العقل: {حكمت وكيل الله عندك -وهو عقلك -على هواك، وألقيت إليه أزمه أمرك، فسلك بك طريق السلامة، وأسلمك إلى العافية المحمودة}(٦).

وما ورد في كلام سيد البلغاء مستقى ومستفاد من الكتاب العظيم، وكذلك ما ذكره الجاحظ وغيره، لأن معاني الكتاب زاد الكتّاب في العصور كافة وحتى هذهِ اللحظة وإلى يوم يبعثون يستقون منه ويفرعون ويستنبطون على أصله الشريف فيمنح أقوالهم وكلماتهم بركة نوره وعظمة معانيه وهنا يكمن الإعجاز.

إن الإنسان الذي يملك زمام سلوكه وتصرفه وعامة أفعاله بيد العقل بعيداً عن الأهواء والفوضى، يكون بذلك يمثل النظام والكمال والتطور في أجلى صوره،

(٥) صالح الجوهرجي: ضياء الصالحين، منشورات لقاء، طهران ص٢٤٧.
(٦) الجاحظ: رسائل الجاحظ ١/ ٩٢.

وبخلاف ذلك فان مَنْ تسيطر عليه الأهواء في صراعها، فقد الحرية وصار عبداً لها، لذا كانت مجاهدة النفس والصراع معها من أقوى أنواع الجهاد وكما قال الإمام الصادق عليه السلام {إن مجاهدة النفوس لهي أشد من مجالدة السيوف}.

وقد وردت آيات كريمة في من جعل إلهه هواه، كقوله تعالى:

أ. ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [سورة القصص: ٥٠].

ب. ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾[سورة الفرقان: ٤٣].

ج. ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[سورة البقرة: ١٢٠].

وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي قرنت بين الهوى والضلال، كما قرنت آيات أُخر بين العقل والهداية والرشاد، ومن خلال ما تقدم وغيره يؤدي بالفر د المؤمن إلى الثقة بالنفس وتكون له فسحة كبيرة من الحرية والتحرر من سيطرة النفس وهواها وتحقق له المعرفة الحقة التي تسمو به سلوكاً وتصرفاً وعملاً صالحاً فضلاً عن الراحة النفسية والإطمئنان والثقة الكبرى.

الأساس الثاني: (لغة الحوار القرآني)

إن الطابع الحواري والميزة الحوارية هي سمة أصيلة في الخطاب القرآني، وإن الخطاب في الكتاب العزيز لا يكون إلا حواراً، حتى الأنبياء الذين ذكر القرآن خبرهم مع قومهم متعرضاً إلى حوارهم فالنبي إبراهيم عليه السلام يحاور نفسهُ أولاً حتى إذا إمتلك اليقين شَرَعَ يحاور أباه ويحاور قومه ويأتيهم بالحجة والبرهان مما يألفون، بل إن سيرة إبراهيم عليه السلام حوار متصل مرةً مع الذات ومرة مع الآخرين وفي كل مرة يزيد الحوار من اليقين والثبات ويهيء من سبل المعرفة، حتى صار هذا الحوار عنده وسيلة الى المعرفة وطلب اليقين لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ

ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾[سورة البقرة: ٢٦٠].

من خلال ما تقدم نرى الإسلوب الحواري الجميل وإعطاء فُسْحَة لإبراهيم بكل مديات الحوار، وهي تربية إلهية للمصطفين من عباده فبذلك يقر شرعة الحوار بين خلقه ويجعلها منهاج الحياة وأسلوب تفاهم لذا كان إبراهيم، قوي الحجة بيِّن الدليل في حواره لقوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ ﴾[سورة البقرة: ٢٥٨].

من هذا يتوضح أن للحوار شكلاً ومحتوى فشكلهُ أن يجري على الحكمةِ واللين وحسن الخطاب، ومحتواه أن يكون قوي المنطق واضح الحجة يأتي برهانه وكأنه فلق الصبح، وكان الحوار نهج موسى عليه السلام أيضاً وقد أدبه ربه فقوَّم نفسهُ وأطلق لسانه حتى سمي كليم الله لقوله تعالى مخاطباً موسى عليه السلام وأخاه هارون ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾[سورة طه: ٤٣ – ٤٤]..

ويستفاد من الآية الكريمة إن القول اللين من تمام الدعوة إلى الله وقد قال رسول الإنسانية محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله {بَشِّروا ولا تنفّروا}.

وقد ورد في الكتاب العزيز ثناء على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بقوله تعالى ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾[سورة آل عمران: ١٥٩].

فقد إنتشرت رسالات السماء إلى البشرية بحُسن المحاورة التي من أُسسها أن تتفهم الآخر فيما يفكر به، وفي ما يسعى إليه، وفيما يخشى منه وفيما يثقل كاهله، ولا تكون محاوره صحيحة بغير هذا التفهم، بل إن الحوار لا يؤتي ثمرته في إنكشاف الحقائق، وزوال عماية الجهالة إلا إذا جرت المحاورة على شروطها من حيث تفهم الآخر ومجانبة نفيه وتغييبه وتهميشه.

وكانت الذروة وأروع ما بلغه الحوار الحضاري والتلاقح الثقافي في النص القرآني

الآتي ﴿ ...وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[سورة سبأ: ٢٤].

لقد جرت الرسل في تبليغ رسالات الله على الحكمة في الحوار والموعظة الحسنة حتى إذا جاء النبي خاتم الرسلﷺ إكتمل المنهج في مداه الأوسع فكان شخصه الكريم مثالاً في الصبر على لأواء الدعوة وعنت المشركين وجدل أصحاب الكتاب، وكان عليه أفضل الصلاة والسلام يأتى كل قوم من مداخِلهم ويلقي إليهم بالحجة التي يدركونها، ويسعى إلى أن يجد عناصر يلتقي عليها معهم ولم يهدر حق أحد في أن يقول ما يرى وكان هذا ديدن أهل بيته الكرامعليهم السلام وصحابته الأجلاء المنتجبينرضي الله عنهم وبذلك إنطبعت الحضارة الإسلامية والعربية على جملتها بطابع الحوار فلم تلغِ أحداً ولَم تُسكت صوتاً، فكان التسامح شعارها، وكل ذلك منبعثاً من روح القرآن، برسالته السمحة.

فقد ورد في الكتاب العزيز من أروع ما ورد بشأن الحرية الفكرية التي هي أعظم الحريات لأنها تعني وجود وكيان الإنسان الحقيقي من خلال فكرهِ وبلورة رأيه من دون فرض أو إجبار وإنما عن قناعة وفهم وروية ورؤية ثاقبة لقوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾[سورة البقرة: ٢٥٦]. وفي الوقت نفسه كانت قدرة الإنسان واضحة في الجدل والجدال بل جُبِلَ عليها قال عز من قائل ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾[سورة الكهف: ٥٤]، ولكن عقب على ذلك في موضع مبارك آخر ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[سورة النحل: ١٢٥]، ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ... ﴾[سورة النحل: ١٢٥]. لذا يستشف ويفهم من هذا وغيره الكثير أن لا يلغى الآخر ولا يُنكر وإنما يُقوَّم ويُهذب ويُوضع على جادة الصواب والطريق الحق كي ينتفع منه ويصبح عنصراً فاعلاً بفكرهِ وذهنهِ ورأيه التي تمثل شخصيته بالمجتمع. ويجب أن نعلم إن الجدال يكون على مسارين: جدال في الحق وجدال في الباطل وهما كما يأتي:

المسار الأول: (جدال في الحق)

غايته وهدفه إستكمال وبيان شرائط المعرفة وأسسها وإستبانة وتوضيح طرائق

وأساليب الإستدلال.

المسار الثاني: (الجدال في الباطل)

غايته وهدفه إخفاء الحق وإشاعة الضلال ونشر الرذيلة.

لقد أوضح القرآن الكريم المسار الأول من الجدال وأكد عليه وذكره في مواضع كثيرة بينما حذر من نتائج وعواقب النمط الآخر وما يؤول له صاحبه، فقد أوضحت الآيات الكريمة الآنفة الذكر وغيرها الكثير شرائط المجادلة وأساليبها ووضعت أسسها وحدودها التي ينبغي أن تقف عندها وتنتهي إليها.

فالدعوة إلى سبيل الله لا تكون إلا بالحكمة والموعظة الحسنة، لأن الخير لا يتخذ إليه إلا سبيلاً خيِّراً، ولأن الحق لا يفضي إليه إلا سبل الحق فالغاية والهدف من ناحية والوسيلة والطريقة متحدتان مرتبطتان في شريعة الإسلام.

وحُسن التأني في الخطاب شيء لا ضير فيه بل العكس الخير كل الخير فيه.

وأساس الحوار هو الإسلوب والرؤية العقلية في بيان الحقائق وبيان كل ما هو خفي وإزالة الضبابية لمن لم ينظر بعين البصر والبصيرة، لأن الإسلام بشريعته الغراء هدفها الأسمى هو إصلاح الإنسان في فكره وسلوكه وفي كل مفاصل حياته ففيه صلاح المجتمع بصورة عامة وشاملة لقوله عز من قائل: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٧]. وفي الوقت نفسه لا تغفل الشريعة من لا تتيسر له القناعة بعد المحاورة لقوله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [سورة النحل: ١٢٥].

والمراد من ذلك وهدفه إن للجدال والجدل حداً ينبغي أن نقف عنده لكي لا يفقد معناه، ويكون لحاجة لا تفصح عن حق.

من كل ما تقدم؛ إن هذا الأسلوب الحواري والمحاورة ليس بجديد أو غريب عن الإسلام، لأن من آداب الإسلام وأخلاقه واسسه هو البناء الفكري الإيماني والأخلاقي قبل تكليف الفرد بالعبادة والإمتثال حتى تكون العبادة عن وعي وإدراك وتفهم وأن

لا تكون جوفاء فارغة من المحتوى الروحي.

المبحث الثاني: العلامة البلاغي وأسلوبه الحواري

توطئه (موجز السيرة الذاتية والعلمية للعلامة المُجدد البلاغي)

تَميزُ فقهاءُ الإماميةِ وعلماؤها بعطائِهم الثر في جميع الصُعد والجوانب الفقهية والتشريعية فضلاً عن المجالات الأخرى التي لها مساس بها، فهذا دليلُ على موسوعيتِهم وإبداعهم ونبوغِهم في شتى المجالات مما أعطى أبعاداً للمدرسة الإمامية.

فقد برز بها فقهاء أثروا المكتبة الإسلامية والعربية بشتى العلوم والمعارف كالهندسة والطب والترجمة والإقتصاد والفلسفة وغير ذلك، فضلاً عن إختصاصهم الدقيق في علوم الشريعة.

وكان للدراسة العلمية الدينية في مدرسة النجف الأشرف منهج وأسلوب خاص يمتاز بالرصانة والبعد المعرفي الشامل وبالتالي تُخّرجُ رجالاً أفذاذاً منهم العلامة البلاغي، فقد كان مُجدداً بحقٍ في المجالات التي تعرض لها والتي كان في طليعتها خطاب وحوار أهل الكتاب، فضلاً عن التصدي للفرق المنحرفة والضالة كالبهائية والوهابية والبابية والقاديانية والألحادية.

يُعّد العلامة الشيخ محمد جواد البلاغي من المجاهدين المتميزين بالقلم والذود والدفاع بمؤلفاتِه الكثيرة القيمة وجهاده وكفاحه ونضاله عن الإسلام وشريعته الغراء.

وجهاد القلم واللسان لهو مكمّل لجهاد السيف والبندقية ويحضرني قول الرسول الأكرمﷺ عندما رجع جعفر بن أبي طالب من الحبشة وكان الناطق الرسمي بإسم المهاجرين الأوائل (بأيهما أُسُّر، بقدوم جعفر أم بفتح خيبر) فجعل ميزان قدوم جعفر[٧] من الحبشة كفتح حصن خيبر على يد حيدرة الكرار عليّ الشجاعة والبطولة والشمم.

(٧) قام جعفر مدافعاً عن الإسلام والمهاجرين في سبيله أمام النجاشي ملك الحبشة بتفنيد ما ذكره أعداء الإسلام المرسلين من مكة وكان لدفاعه وإسلوبه المقنع لأنه نابع من الإيمان وماله الأثر الفاعل على النجاشي حيث إعتنق الإسلام ودافع عن المهاجرين وتمسك بهم ورد كيد الأعداء إلى نحورهم.

وهذا دليلُ على المكانة السامية للقلم واللسان بالذود عن عقيدة الإسلام والدفاع بالكلمة الصادقة فكان قلم البلاغي بإسلوبه المتميز وجهوده الفكرية والبحثية وتعلّم لغة الآخر سداً منيعاً برصانته في وجه المبشرين والمستشرقين وأهل الكتاب والملحدين وأصَحاب الأفكار الضالة والهدامة، ولا نغالي إذا قلنا إنه تفرد بهذا الميدان بإسلوبه المتميّز ويُعدّ مُجدداً في هذا المجال، وهذا ليس بجديد ولا بكثير أيضاً على مدرسة النجف الأشرف الفكرية أن تخرّجَ هكذا أفذاذ، فقد تربّى على مصادر الشريعة الإسلامية: الكتاب العزيز والسنة الشريفة فكان نموذجاً فريداً مثالياً صادق العقيدة مؤسس المدرسة السيّارة للهداية والإرشاد وإزالة الضبابية والشكوك وإزاحة الحُجب والأوهام وتنقية الأفكار وتهذيبها روماً[٨] للحق والحقيقة بحق كما أُطلق عليه داعي دعاة الفضيلة.

كل هذا لا يأتي من فراغ وإنما تولّد من فطرة سليمة وسلامة سلوكه الخلقي والإجتماعي وعفّة النفس والتواضع فضلاً عن البساطة والسماحة، وهذا ديدن علماء ومفكري الإمامية وهم كما قال الإمام الرضاعليه السلام (كونوا دعاة صامتين) ومما تميزت به جهوده الجبارة وعزمه الأكيد بتعلّم اللغات الأخرى كالفارسية والعبرية والإنكليزية، وقد آلى على نفسه تعلم هذهِ اللغات الصعبة رغم الظروف القاسية والإمكانيات المالية والتقنية غير المتوفرة بل المعدومة، لكن هذا لا يقف بوجه الإرادة الصلبة (وقد تعلّم -كما حدثنا الكثير من الفضلاء من طلابه -اللغة العبرية في سامراء على يد تاجر يهودي حتى أجادها وأتقنها وأخذ يكتب بها ويتكلم، ولمّا أن وقف الحاخام على ذلك منع التاجر من الحديث معه لكن الشيخ البلاغيقدس سره كان قد برع بها وإتقنها حتى لم تعد به حاجة إليه بعد.

وأكمل دراسته في اللغة العبرية بعد ذلك في الكاظمية وأخذ يطّلع بعد ذلك على الكتب اليهودية والمسيحية والعهدين القديم والجديد بصورة خاصة ويناقشها وينقدها ويُظهر،

(٨) رام الشيء طلبهُ، المرام الطلب، ينظر مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر الرازي ص٢٦٤..

فيها من سخف وخرافة)[٩].

نشأ العلاّمة البلاغي في فترة من أحلك الفترات التي تميزت ببروز التيارات الفكرية والإتجاهات المعقدة المنحرفة ومن على شاكلتها، أما على الصعيد الخارجي فكانت ضراوة الإستشراق تستشري في البلاد الإسلامية والعربية بأساليب وطرق متعددة فكانت الحركات التبشيرية بأوجه متعددة، ثقافية ومعرفية وإجتماعية وغيرها، ولكن كان هدفها واحداً هو النيل من الإسلام والعرب لأنهم مادة الإسلام.

فقد تبلورت وتوضحت معالم تلك التيارات الداخلية والخارجية في أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين.

تصدى قدس سره للأفكار المنحرفة بكل ما يملك من طاقات علمية وأدوات معرفية، امتازت بإسلوب وفن وطريقة خاصة بالحوار والنقاش والجدال والمناظرة فضلاً عن البحث والكتابة، وبفضل عزيمته وقوة شكيمته، فان عمق الإيمان وقوة الإرادة والإخلاص تيسَّر عليه تجاوز كل الصعاب والعوائق، كل ذلك اثر الإنقطاع لفترة كبيرة في سبيل إنجاز أعماله الفكرية والعلمية وبالفعل فقد منح المكتبة العربية والإسلامية الآثار القيمة بالكم المعرفي والأثر الثر والعطاء العلمي المتميز بمخاطبة أهل الكتاب والفرق الضالة وأهل الأهواء، وكانت أعظم مؤلفاته أثراً هي العقائدية والأبحاث الكلامية ذات الطابع الفكري الفلسفي، والتي تمتاز بالشمول والعموم لذا ترجمت لأكثر من لغة، لمعالجتها فكرة التوحيد وإبطال عقيدة الثالوث وتفنيد آراء الماديين والدهريين والملاحدة ومن على شاكلتها فضلاً عن الرد على الحاقدين والمغرضين بتسفيه أفكارهم الفاسدة من دون إنتقاص أو بخس أو تقليل من شأن الآخر وبيان أصول الدين الصحيحة من دون لبس أو إبهام.

فلو إستعرضنا آثاره العلمية ونتاجاته المعرفية المطبوعة والمخطوطة لضاق المقام أمام حصرها.

(٩) البلاغي: آلاء الرحمن ١/ ١٥٨ -١/ ١٥٩ + البلاغي التوحيد والتثليث في أغلب مباحثه.

وكنا، إلى جانب هذا التراث الضخم والأثر الكبير والعلم الجم والكم المعرفي المتميز، نراه شاعراً وأديباً وهذا ليس بجديد على فقهاء ومفكري وعلماء الإمامية فهم كيان متدفق من المشاعر والأحاسيس والعواطف الجياشة فضلاً عن تعمقهم في الفكر والفقه وكل علوم الشريعة ولربما كانت البيئة الأسرية لها مدلولها في شاعرية البلاغي فخاله صاحب (الكوثرية) السيد رضا الهندي.

لقد إنطبع العلامة البلاغي وتَميّزَ أسلوبه في كتاباته وحواره مع الآخر بالأسس القرآنية بإلتزامه العقلانية ومبدأ الحوار وفهم الآخر، كي تكون آثاره مصداقاً لما أثرت بهِ الشريعة الغراء بأسسها ومصادرها وتعاليمها السمحة بعدم إلغاء الآخر وتهميشه، وهذا ما نلمسه ونراه واضحاً من خلال عرض نماذج تطبيقية من ذلك وكما يأتي.

أولاً: المنحى العقلي في أسلوب البلاغي الحواري.

كان العلامة البلاغي قدس سره يعتمد في مناظراته وحواراته المسلّمات العقلية محاكاة العقول قبل بيان وعرض المعتقد والموروث ومن الطبيعي أن هذا له الأثر الفاعل في حوار وخطاب غير المعتقدين، فضلاً عن تمسكه بالأدلة والبراهين والحجج في حواره ومناظراته مع الآخر من اليهود والنصارى وغيرهم وكان جُلّ إعتماده في الإستدلال على أسس وضوابط في عرض ومناقشة وترجيح الأقوال أو الروايات وغير ذلك فقد عرض نصوص العهدين ومؤلفات أهل الكتاب وما ورد من أقوال علمائهم على العقل والمنطق ويناقشه بإسلوب عقلاني لمخالفتهم المناحي العقلية من دون إعمال لفكر ونظر وتفهم لأن أساس فهم الدين هو العقل وهو في نفس الوقت يدعو إلى التفكر والتفكير حتى أورد أكثر من ثلاثمائة آية قرآنية تدعو إلى التفكر وعدم الجمود والإمتثال من دون فهم وروية وتدبر في كتابه: (التفكير فريضة إسلامية)، قال عزّ من قائل ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾[سورة البقرة: ٢٥٦]. ومفاد الآية بأن الإعتقاد والإيمان لا يكون بإكراه أو إجبار وفرض بل يكون بالوعي والفهم والإدراك والتعقل، وذلك من أسس الإيمان ومعالمه الرئيسة فقد أوضح البلاغي في ذلك من خلال كتابه الذي

يدعو فيه إلى: (الهدى إلى دين المصطفى) ما نصّه: (لا يخفى على كل ذي رشد ومعرفة بطريقة البحث إن مباحثة أهل الدين والإعتراض على جامعتهم وأصل دينهم إنما يُحسن ولا يُعد خبطاً ومراوغة عن الحق إذا كان البرهان عليهم بالمقدمات المنتهية إلى بداهة العقل)[١٠] فلو إستعرضنا كتب العهدين نراها مليئة بالخرافات التي تتنافى وأبسط القواعد فعلى سبيل المثال والتطبيق ما ورد في الإنجيل -المحّرف -عن المسيح عليه السلام (لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحوِّل له خدك الآخر أيضاً، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فإترك له الرداء أيضاً)[١١].

وقد عقّب البلاغي على ذلك ما نصه:

(إن هذا الإفراط المضرّ بالإجتماع الذي لا ينتظم مع تمام الخضوع للشر والأشرار بل لا يستغني حسن الإجماع من شيء من مدافعة الشر والأشرار وإرهابهم بقانون القصاص والتأديب مع الوصية بفضيلة العفو وملاطفة العواطف بحيث يعطي كل مقام حقه من صالح الدفاع والسياسة وفضيلة العفو وجميل الصبر فلا يصح في القانون الأساسي في النبوة العامة أن يُعلم بمحض الصرامة والشدة في أعمال القصاص بدون إشارة إلى فضيلة العفو كما جرى في التوراة الرائجة حيث عملت بالقصاص ولم تشر إلى العفو ولا إلى فضيلته)[١٢].

ومن الجدير بالبيان والذكر أنَّ تعلُّم وفهم لغة الآخر كالعبرية والإنكليزية وغيرهما قد مكنته من التميز بالحوار والمجادلة بالتي هي أحسن وبعقلانية متفهمة للآخر، فقد تعلم اللغة العبرية بكل ما يرتبط بها من حركات لفظية دقيقة مما منحه عقلية واعية وقدرة واسعة الإطلاع بإستيعاب الآخر بل الهيمنة عليه.

(١٠) البلاغي: الهدى إلى دين المصطفى، مطبعة شريعة قم ط١ عام ١٣٧٩هـ ١/ ٧٤.

(١١) ينظر الكتاب المقدس، كتب الشريعة الخمسة ص١١٨ + ١١٩ +سفر التكوين الإصحاح الثاني والثلاثون +الكتاب المقدس: إنجيل متي ٢٠/ ٩.

(١٢) البلاغي: الرحلة المدرسية ١/ ١٤٩ +البلاغي: التوحيد والتثليث ص٢٨.

ولو إستعرضنا على سبيل المثال والتوثيق ما أورده في (التوحيد والتثليث)، يبدو ذلك واضحاً فقد ذكر ما نصه:

{فأما تشبثك في إحتجاجك على التثليث بدعوى قول التوراة (في البدء: خلق الآلهة ودعا الآلهة، إلى آخره حيث جاء لفظه في الأصل العبراني (الهيم) فإنه تشبث قد سمعنا غفلته في أوائل الرسالة المنسوبة لعبد المسيح}.

وإنا لو أعرضنا عما ذكرناه في التوراة الرائجة من وجوه الوهن والغلط لقلنا: يكفي في شطط هذا التشبث كونه ناشئاً عن جهل باللسان العبراني أما ما يكون علامة الجمع-وهو الميم بعد الباء في آخر الكلمة قد يجيء في أواخر الأعلام المفردة نحو (موفيم) (حوفيم) ولدا (بنيامين) و(حوشيم) إبن (دان)و(شليم) إبن (نفتالي) و (شحريم) و (حوشيم) إمرأته.

وقد يجيء في أواخر أسماء الأجناس، كما جاء في شعير (شعريم) وفي العدس (عدسيم) وفي الكرسنة (كوسميم) وفي الماء (ميم) وفي العنب (عنبيم) وفي الرمان (رمنيم)... إلى غير ذلك مما يطول المقام بذكره.

فلماذا لا يكون لفظ (الهيم) في الموارد التي تذكرها علماً مفرداً هو إسم الله جل شأنه وإن وقعت الميم في آخره كما وقعت الميم في أواخر الأعلام التي ذكرناها؟.

وإن كل ما رأيناه من التراجم قد ترجمت هذهِ اللفظة بما هو إسم مفرد علمٌ لله تبارك إسمه في لغة ترجمته، ولم يطرق سمعي ترجمته قبلك -بالآلهة -إلا من المنسوب لعبد المسيح وفي الكتاب المستعار له إسم (الهداية) إلى آخر التوضيح[١٣].

من هذا النص نرى البلاغي في حواره ومناظرته مع أهل الكتاب اليهود والمبشرين وظف الإعتبارات العلمية والعقلية في حل جل الإشكالات العقائدية الفكرية وتأكيداً لإستعماله الإسلوب العقلي والعقلانية نوضح ذلك فيما ورده على الوهابية ومناقشتهم بطريق العقل بشأن الذبائح والنذور بما نصه:

(١٣) البلاغي: التوحيد والتثليث ص٤٦ -٥١.

(إعلم أن من المسائل المسلَّمة الواضحة الضرورية عند طوائف المسلمين: إختصاص الذبح والتقرب بالقربان به سبحانه، فلا يصح الذبح إلا لله...).

وهكذا أمر النذر فمن المؤكد المتفق عليه من طوائف المسلمين إن النذر لا يصح إلا لله. ولذا يُذكر في صيغته (لله عليَّ كذا).

أما الذبح عن الأموات، فلا بَدَّ أن يكون لله وحده، وإن كان عن الميت، وكم بين الذبح عن الميت والذبح له والممنوع هو الثاني لا الأول[١٤].

ونستعرض الآن ما كتبه قدس سره في (المقدمة ونظيراتها التمهيدية) ما يرد فيها من أهمية للعقل فقد ذكر في (النظرة الأولى) في ما يخص العقل وما يترتب عليه من حل الإشكالات الإعتقادية والفكرية في إسلوبه الحواري.

(لا يخفى إن كل إدراك مما عدا التصورات الجزئية الناشئة من إحساس المشاعر لا غنى له عن العقل وكل علم مدون، إنما هو تدريب على السلوك في جادة العقل، ليستفاد منه الإدراك الكلي، والجزئي بواسطة كبراه التي هي معقول صرف، وصغراه التي تضم إليها بالحمل أو الإستثناء محسوسة أو معقولة، فضلاً عن ترتيب القياس، وإنتاجه من المعقول الصرف أيضاً. ألا ترى إن أقرب العلوم إلى الحس كالهندسة والحساب، لا يجدي الحس في كبراه العلمية ما لم تتكفل بها مقدمة عقلية صرفة...)[١٥].

وكذلك أورد البلاغي مقدمة رائعة في كتابه (التوحيد والتثليث) بشأن العقل وبيان مدى دوره وقيمته وأهميته وفاعليته في التحرر من الجمود والتحجر على آراء بالية فقد أوضح:

(إن إعمال العقل والتفكر والنظر العلمي بعيداً عن العواطف والغواية والأهواء يؤدي بالإنسان إلى طريق الحق والصواب والهداية، وإن العقل هو الهادي والدليل للإنسان الواعي المدرك ولا يخدعه كما تخدعه نفسه الأمارة بالسوء والأهواء والعواطف

(١٤) البلاغي: الرد على الوهابية ص١٦٠.

(١٥) البلاغي: أنوار الهدى مطبعة القضاء النجف الأشرف، عام ١٣٤٠ ص٩.

فبالعقل يثاب الإنسان ويعاقب وبه يعرف الله جلت قدرته وبه يستدل على المعبود وبه تعرف كل مفردات الإيمان كالنبوة والإمامة التي هي الإمتداد الطبيعي لها، والمعاد وما يرتبط بها، وبه يعرف الحق من الباطل والصادق من الكاذب ومن المعلوم إن الإيمان والإعتقاد بالله سبحانه وتعالى لا يكون إلا عن عقل ونظر وفكر ثاقب وفهم وقناعة ذاتية غير خاضع إلى قناعة وإيمان الآخرين، وبالعقل تُعرف النفسُ وحقيقتُها ومن خلال ذلك تتم المعرفة الأخرى المبنية على أساس رصين وكما ورد (من عرف نفسه فقد عرف ربه) وإن إتباع الهوى ومكابرة العقل هي العبودية الخسيسة[١٦].

ثانيا: المنحى الحواري (في إسلوب البلاغي وكتاباته):

لم يكتف العلامة البلاغي ﷺ باعتماد الجانب العقلي والرؤية العقلية بل إتكأ وإعتمد الدليل وتمسك بالبراهين وتأكيد الحُجة في حوارهِ ومناظراته مع أهل الكتاب وغيرهم من أصحاب العقائد الضالة والفرق المنحرفة عن جادة الصواب وذلك بتوثيق وترصين ما يعرضه ويحاور به، فقد إعتمد في إستدلالاته على جملة من الأسس في مناقشة وترجيح الأقوال والروايات وغيرها، وهذا دليل واضح على وعيه وإدراكه وموسوعيته العقلية والنقلية[١٧].

والمنحى الحواري لديه ينتظم على أسس سليمة ومتكافئة بين طرفيه ولا يصح توجيه الإتهامات بدون أدلة كما لا يصح الخوض في قضايا العقائد بوجهة نظر مسبقة متعصبة غير قائمة على أسس منطقية)[١٨].

وبهذا يكون قد فهم الآخر وإعترف بوجوده دون تهميش أو تغييب وما إلى ذلك من أساليب الجهل والعناد وإعتبار ما لديه من المسائل العقائدية والفكرية من المسلمات مسبقاً.

(١٦) البلاغي: التوحيد والتثليث ص٢٣ -٣١ بتصرف.
(١٧) ينظر البلاغي: آلاء الرحمن ١/ ١٥٨ -١٥٩ + البلاغي: التوحيد والتثليث (وقد طغى على جثل مباحثه).
(١٨) البلاغي: الرحلة المدرسية ٢/ ٣.

فقد كان واضح الإسلوب في حواره الذي يخاطب العقل والقلب معاً يفهمه أبسط الناس علماً وثقافةً، وكذلك حواره مع الشرائح المثقفة والمعمقة فكرياً[١٩].

وهذا لم يأت من فراغ كما أسلفنا في المبحث الأول لأنه درس وتعمق وتفهم وقرء وعمل بأخلاق الإسلام وأهل البيت عليهم السلام فكان رسول الإنسانية محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله فاتحة خطاب السماء له ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[سورة القلم: ٤].

فكان متميزاً بإسلوبه الهاديء ونقاشه الذي لم يغفل الآخر، وقد وظف في نقاشه وحواره كل مفردات الشريعة الغراء العقائدية والأخلاقية والعبادية في سبيل إيصال الحقيقة وكان يحترم الرأي الآخر وكما قيل (الخلاف في الرأي لا يُفسد للود قضية) ولكن بشرائط وأساليب وطرق المناقشة العلمية، حيث لم يتوقف في نقاشه وحواره ومساجلاته بالرد والنقض على عقائد وآراء الآخرين بل كان يوضح المفهوم الإسلامي والرؤية الإسلامية الحقة كبديل وعلاج ووصفة ناجعة للأفكار الضالة المنحرفة.

عرض نماذج تطبيقية:

ففي عرضه لفريضة الحج بكل أبعادها التربوية وآثارها الروحية وإعتبارها مؤتمراً عالمياً للمسلمين بالحضور المنظم وفق تعاليم شريعة السماء، فضلاً عن الإستفادة ممّا ورد عن كتب أهل الكتاب كالتوراة والإنجيل (الغير محرّفة) على رد دعوى من يُعّرض بالحج إلى بيت الله الحرام وكما قيل (من فمِك أُدينك):

(فالتوراة أوجبت على كل ذكور بني إسرائيل أن يقصدوا في كل أعيادهم في كل سنة ثلاث مرات إلى المحل الذي يختاره الرب ويحملوا معهم عشورهم وأبكار غنمهم وبقرهم، ولا يخفى إن الإحرام ومناسك الحج عندنا أقلّ حكمها وفوائدها الحميدة حبس النفس عن أهوائِها وجبروتها، فيتجرد العبد بذلك إلى محاربة الهوى والشيطان، وإن العليم الحكيم ليعلم إن الإنسان لا تقاد روحه إلى النواميس الصالحة إلا إذا أدبّته

(١٩) م، ن ٣/ ٢ ـ ٣.

الشريعة الآلهية برياضة نواميسها)[٢٠].

وكان من الصفات المميزة لمناظراته وحواراته وردوده وإجاباته على الآخر إنكاره للتقليد ورفضه للتعصب فكان قمة في اللغة الحوارية الهادئة الهادفة في نفسه يورد ذلك بما نصه: (أنا في ميدان البحث وطلب الحق لا في حفيرة التقليد وعمى التعصب)[٢١].

ويؤكد في موضع آخر: (بأن الإنصاف من الآخرين جمال الإنسان وشرفه)[٢٢].

وقد دعا العلامة البلاغي قدس سره في مواقف عديدة إلى ترك ونبذ التعصب وطلب الحقيقة والتحرر من العصية وفهم الآخر ما نصه:

(... فلتزل مما بيننا معثرة التعصب ونعطِ الحقَ حقّه من النصفة فنفزعُ إلى الله في طلب التوفيق والهدى إلى سبيله)[٢٣].

قال البلاغي قدس سره نفسه يوضح إسلوبه الذي إختطه في حواره مع الآخر بعد أن حصل على مجموعة من كتبهم وتعلم لغتهم فقد أوضح في كتابه (رسالة أعاجيب الأكاذيب):

وجداني حبّ العلم إلى النظر في دعوة المبشرين من النصارى وإجتهادهم في نشر الكتب في جميع النواحي لكي أرى قيمتها... فأخذت بكلتا يديّ، التحقيق والإنصاف ومشيتُ بينهما جنباً بجنب، فتصفحت كتب المبشرين وأمعنت النظر في كتب العهدين مرة بعد مرة، فإعترضني في ذلك مواقف موحشة ومناظر مدهشة فبعثني حب الخير للبشر، والتشرف بخدمة الهدى والإستقامة، على أن أجرد من كلّ صنف من تلك المواقف والمناظر كتيباً صغيراً، أقدمه لطالبي الإطلاع على أعمال البشر والنظر في

(٢٠) البلاغي: التوحيد والتثليث ص ٨٢ -٨٧ + أنظر الكتاب المقدس ١/ ٢٥٤ سفر التثنية الإصحاح الرابع عشر ص٢٢ -٢٧ + أنظر الكتاب المقدس ١/ ٢٥٦ سفر التثنية الإصحاح السادس عشر ١٦ -١٨.

(٢١) البلاغي: الرحلة المدرسية ١/ ٨ + ٢/ ٣.

(٢٢) البلاغي: الرحلة المدرسية ١/ ٧٧.

(٢٣) البلاغي: التوحيد والتثليث ص٨٨.

الأمور التاريخية وأحوال الإنسان)[٢٤].

والصفة المميزة لحوارهِ كان يرتكز على أسس سليمة متكافئة بين طرفيه ولا يوّجه الإتهامات بدون أدلة كما لا يصحح النقاش في مسائل العقائد برؤية ورأي مسبق ووجهة نظر مسبقة متعصبة غير مرتكزة على أسس منطقية بل البعض يعتبرها من المسلمات[٢٥].

وإن هدفه وغرضه من الحوار والمحاورة هو نجاة المُحاور والمُخاطب ومحاكاة الوجدان... ولو إستعرضنا على سبيل العرض كنموذج تطبيقي، هو مناقشة مسائل عديدة وصلت إليه والتي لم تحمل توقيعاً من أحد جاءته من سوريا فنراه لم يترك الأمور على عوانها بل ناقشها بالتفصيل وبكل وضوح وكأن السائل معروف وفي نفس الوقت في خطابه وحواره محافظاً على العواطف البشرية والعلاقة المشتركة ويثير فيه حكم الله بوجوب التعاون ومعرفة الحق على الرغم من عدم معرفة شخصه، بل يُكمل الجواب ويُتم المراسلة، وبهذا العمل والإسلوب الهادف يهدف الإمام البلاغي وكأنه على علم ودراية بصاحب هذه الرسالة المجهولة، لأن غرضه ومقصده وغايته هو أن يضعهُ على جادة الصواب والهداية الآلهية بعد أن ينقض ما في ذهنه من عقائد ورؤى وتصورات باطلة[٢٦].

وكان قدس سره في الوقت نفسه يقوم بعرض الفجوات والمتناقضات في آراء ومعتقدات أهل الكتاب بعد أن حرفوا الكتب المقدسة التوراة والإنجيل ومن ثم يتصدى بكشفها والرد عليها بإسلوبه المعهود المنضبط بأسس الحوار وإحترام الآخر.

وإن إسلوبه الحواري يطغى عليه المنحى القرآني في إحتجاجه ومناظرته الهادئة بإيصال الحقيقة لتشمل كل المعمورة مُدعمة ومُرصّنة بالأدلة والبراهين بعقلية متفتحة

(٢٤) البلاغي: أعاجيب الأكاذيب ص٥٨ -٥٩.
(٢٥) البلاغي: الرحلة المدرسية ٢/ ٣.
(٢٦) البلاغي: التوحيد والتثليث ص٨٨ ـ ٨٩.

بالتدبر وإعمال الفكر.

ونعرض الآن إسلوبه الحواري الواضح من خلال رده على الوهابية وما يقومون به من أعمال بعيدة عن الإسلام والإسلام منهما براء وكما يأتي نصاً:

(فرأيت أن أتكلم معهم بكلمات وجيزة، جارية في نهج الإنصاف، خالية عن الجور والتعصب والإعتساف، سالكاً سبيل الرفق والإعتدال، ناكباً عن طريق الخرق والجدال، فما المقصود إلا هداية العباد والله ولي الرشاد)[٢٧].

ويتوضح الإسلوب الحواري المرتكز على النصوص القرآنية أكثر من خلال النص الآتي في مخاطبة الوهابية والرد عليهم وكما يأتي:

(إعلم إن من ضروريات الدين والمتفق عليه بين جميع طبقات المسلمين، بل من أعظم أركان أصول الدين إختصاص العبادة بالله رب العالمين.

فلا يستحقها غيره، ولا يجوز إيقاعها لغيره ومن عبد غيره فهو كافر مشرك، سواء عبد الأصنام، أو عبد أشرف الملائكة، أو أفضل الأنام، وهذا لا يرتاب فيه أحد ممن عرف دين الإسلام وكيف يرتاب ؟!. وهو يقرأ في كل يوم عشر مرات: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: ٥]. ويقرأ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ..﴾ [سورة الكافرون: ١ -٢].

ويقرأ في سورة يوسف ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ..﴾ [سورة يوسف: ٤٠]. ويقرأ فيه ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾[سورة الزمر: ١٤]. وغيرها الكثير لا يسع المجال لسردها.

وفي آخر الحديث يقول.. إلى غير ذلك من الآيات القرآنية، والأحاديث المتواترة[٢٨].

لكن العبادة كما هو المُفسر على لسان المفسرين، وأهل العربية، وعلماء الإسلام:

(٢٧) البلاغي: الرد على الوهابية، تح السيد محمد علي الحكيم نشر مؤسسة آل البيت لإحياء التراث عام ١٩٨٢ بيروت ص٤٤.

(٢٨) ينظر الكليني: الكافي ١/ ٥٧ ـ ١٢٧ كتاب التوحيد.

غاية الخضوع، كالسجود والركوع ووضع الخد على التراب والرماد تواضعاً، وأشباه ذلك، كما يفعله عبَّاد الأصنام لأصنامهم، وأما زيارة القبور والتمسح بها وتقبيلها والتبرك بها، فليس في ذلك في شيء، كما هو واضح، بل ليس فيها شيء من الخضوع فضلاً عن كونها غاية الخضوع مع إن مطلق الخضوع -كما عرفت -ليس بعبادة، وإلا لكان جميع الناس مشركين حتى الوهابيين!. فإنهم يخضعون للرؤساء والكبراء بعض الخضوع، ويخضع الأبناء للآباء...

وقال عزمن قائل ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾[سورة الإسراء: ٢٤]. أترى الله حين أمر بالخضوع للوالدين أمر بعبادتهما أليس هذا خضوعاً وتواضعاً)[٢٩].

الخاتمة

وكم بنا، نحن المسلمين اليوم إذ نعيش الإرهاب والقتل والدمار والتهجير وعدم فهم الآخر بل هو الإلغاء والإستباحة والقتل لمجرد الإنتماء، من حاجة مُلّحة إلى وعي وإدراك وفهم الأسس القرآنية وتعاليم الشريعة الإسلامية السمحة ومن مرتكزاتها العقلانية: الحوار والوعي وإعمال الفكر لإستيعاب الآخر دون تغييب أو عدم الفهم فهماً كاملاً، فعلينا مجابهة غياب العقل عند الآخر بالعقلانية والرؤية الفاحصة حتى نقترب شيئاً فشيئاً منه وكما ورد في الحديث (لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله فبقدر عقلهِ تكون عبادته) أي تفهمه ووعيه وإدراكه ومجابهة قوى الكفر والضلال من التكفيريين والظلاميين، بمبدأ التعقّل ولغة الحوار وفهم الآخر حتى نكفكف منها ونردها إلى جادة الصواب وهو الإسلام الحنيف وهو طريق الحق والسماحة وكما قال سيد الكائناتﷺ: (جئتكم بالشريعة السمحاء) والسماحة نقيض الإلتواء والتعصب وضيق الإفق ونقيض المسارعة في تكفير من يختلف معنا وبالتالي يؤدي به إلى التفخيخ والتفجير والتهجير والقتل وسفك الدماء والتمثيل بأخيه المسلم لا لشيء سوى إنه يختلف معه في الرأي.

(٢٩) البلاغي: الرد على الوهابية ص٥٠.

وكم بنا من حاجة إلى أن نشيع في خطابنا المعاصر الذي يعيش مأساة الجهل المركب الفادح، العقلانية والحوار والتفهم وتوسيع الإطار الفكري لإستيعاب الآخر بإدراك ووعي.

وكم بثقافة العالم اليوم من حاجة ماسة وضرورية إلى ذلك، فقد دعا علماء ومفكرو المسلمين إلى التعقل والحوار وجعلهما الأساس في بناء مجتمع واعٍ يرفل بالخير والمحبة والسعادة والألفة بعيداً عن الجهل والجهالة فقد كان شيخنا صاحب الذكرى العلامة البلاغي قدس سره إنموذجاً إسلامياً للحوار الحضاري للعالم اجمع بكل دياناته وأطيافه ومذاهبه بعيداً عن التعصب وبخس الآخر وتهميشه بل وحتى القضاء عليه وإنهائه، وذلك ما أُصطِلح هليه في له الحداثة و(حوار الحضارات) وكذا (حوار الثقافات).